المحاضرة العاشرة

طرق التجارة في عصور ما قبل التاريخ

كان لمنطقة الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية في عصور ما قبل التاريخ علاقات تجارية وبحرية مع وادي الرافدين و وادي النيل وفارس والهند وحوض البحر المتوسط . وكان سكان تلك المناطق في تلك الفترة يرون الطرق البرية أكثر أمنا من الرحلات البحرية.

فقد كانت الطرق فى الخليج العربي والبحر الأحمر من طرق التجارة الأساسية لكثير من الحركة التجارية والتبادلات الحضارية فيما بين الحضارات ألكبري في الشرق. وكانت حضارة مابين النهرين قد قامت في أقصى الشمال الغربي من الخليج العربي. وكانت مياه الخليج في العصور القديمة أعمق كثيرا مما هي عليه اليوم، وبانحسار المياه شيئاً فشيئاً ظهرت أرض خصبة غنية بالرسوبيات، مما جعل المنطقة مصدر جذب للاستيطان.

و قامت الطرق التجارية فى المنطقة بدور كبير في تشكيل أنظمتها الحضارية والدينية خلال حقبة ما قبل التاريخ وفجره. وتشير اللقى الفخارية التي كانت ضمن السلع التجارية في مواقع حضارات العبيد (6000 - 5000ق.م) على امتداد الساحل الشرقي للخليج العربي إلى صلات وثيقة بمراكز حضارية مع المناطق المجاورة . وهناك فخار العبيد الأحمر ذو العجينة المخلوطة بالقش والتبن ، والذي وجد في عدة مواقع على امتداد ساحل الخليج ، منها موقع الدوسرية الذي يقع على مسافة 12 كيلا جنوب شرق مدينة الجبيل الصناعية.

ولذا كانت منطقة الخليج العربي ملتقى الحضارات والثقافات القديمة، على مر التاريخ لأنها كانت تقع بأقصى الهلال الخصيب وهو الأرض الخضراء التي تمتد من المنطقة بأقصى شمال الخليج مشَكلّة نصف دائرة حتى شمال غرب هذه المنطقة نهر النيل. وفي منطقة الإمارات العربية وعُمان، تم العثور على لتمتد إلى دلتا آثار تدل على وجود مستوطنات سكانية يعود تاريخها إلى سبعة آلاف سنة. وفي هذه المستوطنات تم اكتشاف قطع متميزة من الفخار الأسود من منطقة عبيد بالعراق، مما يدل على أن التجارة عبر مناطق الخليج المختلفة كانت نشطة.

ويلاحظ أن التبادل التجاري عبر الطرق البرية أو البحرية في هذه المنطقة من الخليج يظهر في شكل آليات اجتماعية – حضارية أكثر من كونه علاقات اقتصادية صرفة. وربما كانت المنتجات والموجودات البحرية كاللؤلؤ والمحار من أقدم سلع التبادل التجاري في شمال شرق الجزيرة العربية. ومما لاشك فيه أن الثروات البحرية للجزيرة العربية أدت دورا مهما في تشكيل نظمها الدينية والاقتصادية والحضارية ،خلال الحقب المختلفة لعصر ما قبل التاريخ .

ونتيجة لذلك يرى البعض بأن تزامن نهاية مظاهر حضارة العبيد وبخاصة أثارها المتميزة ، مع اختفاء مستوطناتها في شمال شرق الجزيرة العربية يؤخذان مؤشرا على تحول استيطاني وحضاري باتجاه جنوب بلاد الرافدين ، أدت الطرق التجارية ، عملية التواصل الحضاري دورا مهما في تشكيله. ونجم عن ذلك هجرات متوالية من منطقة الخليج العربي خاصة في الشرق باتجاه الإقليم الجنوبي لبلاد الرافدين .وهذه الفرضية يؤيدها التغير الفجائي في نظام المستوطنات في جنوب بلاد الرافدين في نهاية حقبة حضارة العبيد.

وكانت المجموعات السكانية ذات العلاقة العرقية بشرق منطقة الخليج تمثل عنصرا مهما في البنية السكانية لجنوب بلاد الرافدين ، وربما يفسر ذلك الأهمية الكبيرة لدلمون ومعبوداتها في الأساطير الدينية السومرية في وادي الرافدين . وعززت هذه العلاقات التجارية الروابط الدينية والفكرية بين دلمون وسومر ، وقد اعتبرت جزيرة تاروت فى المنطقة لمنطقة الشرقية العاصمة التجارية لدولة دلمون.

وأدى التداخل التجاري والحضاري ، فضلا عن التقارب الجغرافي بين دلمون وبلاد الرافدين ، إلى محاولة بلاد الرافدين ممارسة شكل من الوصاية السياسية عليها في بعض الفترات التاريخية . إذ نجد أن الملك تكلتي – نينورتا الأول لا يكتفي بتلقيب نفسه ملكا على آشور وسومر وأكاد فحسب ، بل يضيف إلى ذلك بأنه ملك دلمون وميلوخا .

وكان لماجان علاقات عبر البحر حتى الرافدين تجاوزت الصلات التجارية والاقتصادية إلى التأثير الديني وتشير الأسطورة السومرية (إنكى ونينهو-ساج) إلى أن اسم المعبود الرئيسي في ماجان المدعو(لت-نينولتا) كان أسما سومريا. وكان الشعراء والكتاب السومريون يتباهون بأن معبود هم (إنكى) هو الذي اختار (لت-نينولتا) معبودا لما جان.

وتواصلت علاقات ماجان التجارية والثقافية مع العديد من المراكز الحضارية المجاورة في فارس مثل تب يحي وشاري وسوفتا وغيرها ، ونتج عن هذه العلاقات وجود قواسم مشتركة فنية وصناعية تمثلت بشكل واضح في الأواني الفخارية لتلك المناطق،
الرمادية اللون ، والذي وجد في العديد من المواقع مثل : هيلي وأم النار. وكان للطريق البري عبر واحة البريمي أهمية كبيرة في التواصل التجاري والحضاري بين هذه المنطقة وبقية أجزاء الخليج العربي .

وكما ذكرنا فان أبناء وادي الرافدين وجيرانهم من الحضارات المختلفة يتاجرون عبر الخليج والمحيط المندى وبحر العرب منذ عصور قديمة، وعلى الرغم من وفرة المنتجات الزراعية في منطقة الرافدين ظلوا بحاجة للحصول علي المعادن والخشب والحجارة، فانطلقوا بقواربهم عبر النهر ليصلوا لمياه الخليج بحثاً عن هذه الموارد عن طريق تجارة أكثر ربحا.

ولقد ذكرت المصادر من خلال وثائق السومريين التاريخية المكتوبة التي تعود إلى ثلاثة آلاف سنة ق.م. أنهم كانوا يصلون لمنطقة منطقة ميجان لجلب النحاس في الجنوب الشرقي من الخليج.
ومنذ ألفي عام ق.م. وبعد حضارة ميجان ورد أسم دلمون في في السجلات التاريخية بوصفها مركز تبادل تجاري بين الرافدين وميجان وملوخا؛ (وهو اسم أطلقه الاكاديون على منطقة وادي السند)، وعثر هناك على آثار تشتمل على أختام تشير إلى المنطقة التي وردت منها البضائع.

ووصل أبناء وادي الرافدين بقواربهم المجهزة ملاحيا إلى وادي السند، وكان السومريون يصنعون قواربهم من قصب (الغاب). كما أن بحارة ميجان كانوا أيضا يسيطرون علي التجارة مابين الرافدين والهند عبر الخليج في القرن الثالث ق.م. وكذلك كان أهل دلمون على ساحل الخليج والمدن القريبة من الساحل كأم النار وجزيرة فيلكا في الكويت. ومما سهل التجارة شق طريق عام3500ق.م. يمتد من شمال الخليج لربطه بالبحر المتوسط.

ومن السلع التجارية التي كان الخليجيون قديما يتاجرون فيها، الأعشاب والتوابل واللبان والمر والأقمشة والجواهر والأحجار الكريمة والأرز والمعادن كالنحاس، الذي كان يجلب من ميجان.

وعرف الخليج بأنه مصدراً أساسياً لتجارة اللؤلؤ، فقلة عمق مياه الخليج مكّنت الغواصين من الوصول إلى عمق البحر لاستخراج محاره منذ أزمان بعيدة.

وفي القرن السادس ق.م. أنشأ الاخمينيون إمبراطوريتهم التي امتدت في أوجها إلى جميع أرجاء الشرق الأدنى، من وادي السند إلى ليبيا على ساحل أفريقيا الشمالي، وشمالاً حتى مقدونيا. وتمكنوا من السيطرة على جميع الطرق التجارية المؤدية إلى البحر الأبيض المتوسط عبر البر والبحر؛ وقام ملوكهم بإعادة بناء الطريق من منطقة السوس في إيران إلى ساردیز بالقرب من افسوس و سميرنا.

طرق التجارة البرية مع وادي الرافدين و فارس :

كان شرق منطقة الخليج العربى يسمى دلمون (Dilmon) و يشمل جزيرة فيلكا و البحرين و شرق المملكة العربية السعودية جنوبا . و قد كان لهذا الجزء ، من خلال الألف الثالث قبل الميلاد ، دور نشط في مجال التبادل التجاري و التعامل الاقتصادي و تبادل التأثيرات الدينية و الحضارية بين العديد من المناطق ؛ فقد كانت دلمون نقطة التقاء و اتصال متبادل بين البر الرئيسي لساحل الخليج العربي الشرقي و مجموعة التجارة الأجنبية في جزيرة البحرين .

و هناك أدلة أثرية توضح استخدام الطرق البرية للقوافل بين دلمون وأواسط وادي الرافدين كما تشير إلى ذلك نصوص « ماري » السورية، كما تواصلت علاقات الجزيرة العربية التجارية مع الفرس عبر الطريق البري لواحة البريمي ، فالآثار التي عثر عليها في كل مكان من مواقع تبيحي ، وبامبر و غيرها في إيران لها ما يناظرها في مواقع هيلي و أم النار.

و توحي السلع التي عثر عليها في العديد من مقابر التلال في أجزاء متفرقة من شبة الجزيرة العربية بوجود حركة تجارية نشطة منذ العصر البرونزي (2400 – 1800 ق . م) ؛ فقد كشفت الحفائر الأثرية لمدافن التلال الركامية في الجزيرة العربية – لا سيما في مدافن جنوب الظهران و الربع الخالي بالمملكة العربية السعودية على سبيل المثال ، و مدافن سار الجسر و أم علي بالبحرين – عن وجود مجموعات متفرقة من الحجر الصابوني و الخرز و الأواني الزجاجية و الأحجار الكريمة و الأواني النحاسية كانت ضمن سلع التبادل التجاري بين ساحل الجزيرة العربية الشرقي و برها الداخلي.

أدت جزيرة تاروت في شرق المملكة دورا حيويا في فترة فجر عصر الكتابة ، و الفترة الثالثة لفجر عصر السلالات . و خلال فترة أكاد – أور الثالثة / إسن لارسا انتقل مركز النشاط التجاري منها إلى جزيرة البحرين لأسباب جغرافية وسياسية معقدة . و كما هو مثبت في مدافن الظهران التي تتزامن مع تلك الحقبة التاريخية ، فإن ساحل الخليج العربي الشرقي استمر في ربط المناطق الداخلية للجزيرة بحركة التجارة الدولية.

و تشير الوثائق الإدارية التي ترجع إلى فترة السلالة الأولى في لاجاش – حوالي 2500 ق . م إلى اتصالات تجارية بين دلمون و بلاد ما بين النهرين (دولة سومر) . وكان التمر الذي يجلب من واحات القطيف و الهفوف في شرق المملكة العربية السعودية أكثر السلع تداولا و أهم سلع التصدير فى المنطقة في تلك الأزمنة .

و قد سلطت فنون الرسوم و النقوش الصخرية التي وجدت في أماكن متفرقة من المملكة الضوء على جوانب من الحياة الاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية لإنسان ما قبل التاريخ خلال فترة العصر الحجري الحديث ، بوصفها مرآة للتواصل التجاري و الثقافي و الحضاري الذي ساد عبر الطرق البرية و البحرية أكثر من كونها تمثل تشابها أو تماثلا حضاريا أفرزته المصادفة المحضة.

.....